

النزعة القومية في الخطاب الروائي العربي، رواية السماء تمطر ماء جافا لزهير الشايب أمودجا

Nationalism in Arab Narrative Discourse: The Novel Al-Samaa Tumturu Maa'an Jaafan by Zouheir Al Chayeb as a Case Study

هادية زمور¹*

¹ محبر الشعريات وتحليل الخطاب، جامعة باجي مختار، عنابة، (الجزائر)، ص. ب. 12 عنابة 23000، عنابة الجزائر

hadia.zemmour@univ-annaba.org

تاريخ الاستلام: 2025-10-20 تاريخ القبول: 2025-05-19 تاريخ النشر: 2025-05-25

ملخص البحث

استطاع الجنس الروائي منذ نشأته أن يواكب مختلف الانشغالات النظرية والطروحات الفكرية في الأوطان العربية، نظرا لأنه الجنس الأدبي الأنسب لاستيعاب كل المستجدات التي يشهدها العصر، وقد كانت فكرة القومية من أبرز النزعات التي ارتبطت بالرواية، حيث لعبت دورا مهما في ترسيخ الهوية وتوجيهها، وقد اختلف الروائيون في التعبير عن هذه النزعة النبيلة، وتباينت رؤاهم الفكرية في تقصي هذه الموضوعة السردية؛ ويتجلى ذلك بصورة واضحة الملامح، في الكثير من النصوص الروائية، كرواية "السماء تمطر ماء جافا" لزهير الشايب، التي عبر من خلالها عن مآلات مشروع القومية العربية، وعن أسباب الإخفاقات هذا المشروع الفكري، منّها النعرات الطائفية، وتبعاً لذلك يهدف هذا البحث إلى الكشف عن مظهرات النزعة القومية في رواية "السماء تمطر ماء جافا"، وفي الأخير توصلت هذه الدراسة إلى نتيجة مقادها أن الخطاب الروائي يسعى في المقام الأول إلى خلق عمل فني متكامل، يتمحور حول بؤرة مركزية، تفيض منها جلّ المعاني، ذات الصلة الوطيدة بالنزعة القومية العربية. كلمات مفتاحية: القومية، الرواية، الهوية، السردية، الطائفية.

Abstract:

The novelistic genre has been able, since its inception, to align with various theoretical concerns and intellectual propositions in Arab countries, being well-suited to encompass the evolving issues of the times. Nationalism has been one of the most prominent tendencies associated with the novel, playing a significant role in shaping and reinforcing identity. Arab novelists have expressed this noble

* المؤلف المرسل:

inclination in different ways, with varying intellectual perspectives on this narrative theme. This is evident in many novels, such as *Al-Samaa Tumturu Maa'an Jaafan* by Zouheir Chayeb, in which the author explores the outcomes of the Arab nationalist project and the reasons behind its failures, including sectarian tensions. Accordingly, this study aims to identify the manifestations of nationalism in the novel *Al-Samaa Tumturu Maa'an Jaafan*. In conclusion, this study found that narrative discourse seeks to create a cohesive artistic work centered around a core idea, from which most of the meanings related to Arab nationalism emanate.

Keywords: Nationalism, Novel, Identity, Narrative, Sectarianism.

1. مقدمة:

كان الجنس الروائي - منذ الحركة الإحيائية- وعاء لاحتواء فكرة القومية ووسيلة للإفصاح عن الشعور بالانتماء القومي العربي، ولعل بدايات هذا الجنس مع الحركة الإحيائية، والرواية التاريخية يفسر ارتباطه بأهم مقومات القوميّة وهما التاريخ واللغة، فقد نخلت الرواية العربية من رموز وشخصيات التاريخ العربي وجعلت منها فضاء للإفصاح عن انتمائها القومي، ناهيك عن اتخاذ اللغة العربية لغة للإبداع.

وفي واقع الأمر تعمقت فكرة القومية على المستوى الفكري والتنظيري، حتى أسفرت عن تجربة الوحدة العربية بين مصر وسوريا، غير أن هذا المولود الذي حمل آمال وطموحات الشعوب العربية كان مشوها، فما لبثت هذه الوحدة أن خلقت انفصام، يوحي بذلك الشرخ العميق والهوة السحيقة بين الدول العربية، هذا ما تجلّى في بعض الخطابات الروائية العربية، من مثل رواية "السماء تمطر ماء جافا" لزهير الشايب، الذي سلط الضوء على تجربة الوحدة والانفصال بين مصر وسوريا، وهذا ما تسعى الدراسة إلى قراءته وتحليله لغرض قياس درجة الإحساس بالانتماء القومي، عبر استكناه علّة فشل المشروع القومي وتداعيه. وكان من الطبيعي أن تنير الدراسة أسئلة جوهرية، نراها في حاجة ماسة إلى إجابات مقنعة، أهمّها: ما هي النزعة القومية؟ كيف تبلورت في الرواية العربية؟ وكيف عبّر الروائي زهير الشايب عن الوحدة القومية العربية في روايته؟. وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي الاستقرائي؛ وعليه فإنّ دراستنا تهدف إلى معرفة الأبعاد الدلالية والفنيّة

لمدونة البحث، وتحديد أهم محاورها الفكرية السردية، واستخلاص بنياتها العنوانية بالتفكيك والشرح والتحليل، بما جاء به الروائي في هذا العمل الفني، الذي يعالج موضوع النزعة القومية والانفصال، والتعبير عنه بأسلوب سردي جمالي.

2. في ماهية القومية

1.2 لغة

جاء في المعاجم اللغوية أنّ القومية مصدر صناعي، مشتقة من لفظة قوم والقوم هم جماعة من الناس، وجاء في لسان العرب أن القوم هم: «الجماعة من الرجال والنساء جميعاً، وقيل هو للرجال خاصة دون النساء» ويقوي ذلك قوله تعالى: {لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم}¹. ولفظة قومية nationalism «مبدأ يجمع أمة ذات تاريخ مشترك أو أماني مشتركة، وقومية الأمر قوامته، نظامه وما يقوم به، وقومية الإنسان قوامته»².

2.2. اصطلاحاً:

اختلفت الآراء ووجهات النظر في وضع مفهوم دقيق لفكرة القومية باعتبارها قضية أساسية تتجلى على جميع مستويات الحياة سواء اجتماعية، سياسية، تاريخية، أدبية... فقد تنوعت وتعددت حدود تعريفها بتنوع مصطلحاتها. فلي هذا المصطلح تعريفات عديدة نذكر منها: تعرف القومية على أنّها «تعبير عن وجود جماعة من الناس يتكلمون لغة واحدة وينحدرون غالباً من أصل واحد»³.

أمّا عن مفهوم القومية العربية فهي «عقيدة مستمدة من العرب، عائدة إليهم جامعة لهم مؤلفة بقواهم السياسية والثقافية والاقتصادية، هدفها تحرير الأمة العربية، تحريراً كاملاً من النفوذ الأجنبي بشقّ مناحيه وأشكاله وصوره وأسمائه، ومن المظالم المختلفة القائمة فيها، وذلك بإنشاء كيان عربي سياسي موحد قائم على أسس من سيادة الأمة والتقيّد بمصلحتها»⁴. لذلك يمكن القول، بأن القومية العربية تعدّ مجموعة الصفات والخصائص، التي جمعت العرب وكونت منهم أمة واحدة، كوحدة اللغة والتاريخ

والثقافة والوطن من أجل تحقيق وحدة الأمة العربية وبنائها والنهوض بها، لأنها وسيلة وسلاح لبناء المجتمع الذي يشارك في بناء حضارته العربية.

إنّ النزعة القومية في الأدب «التمسك بالموضوعات التي تهم كلّ أبناء الأمة الواحدة والتحمس لها من حيث الاتجاه نحو الدفاع عن القضايا الوطنية وإبراز ما يحث القراء على التمسك بقيمهم في مواجهة خطر حقيقي أو متصور»⁵، أي أنّ كل ما يقوله الأديب دفاعا عن أمته، وقومه العربي يُعدّ من الأدب القومي، وذلك من أجل تحقيق الهدف القومي، والذي يتمثل في إثبات الوحدة العربية.

3. حضور النزعة القومية في الخطاب الروائي العربي:

تجلّت النزعة القومية في الخطاب الروائي العربي بطرق متعددة، ومتنوعة، عكست التطورات التي شهدتها الحضارة العربية في مختلف الأزمان، «فإن الرواية منذ نشأتها الأولى-رغم تعثرها- كانت تنتمي إلى الاتجاه القومي العربي وتمتزج به، ومن يرصد تطور الرواية العربية منذ القرن الماضي بلحظ غلبة الرواية التاريخية التي تستمد إطارها ورموزها من التراث العربي، وهو ما بدا واضحا في مصر والشام بوجه الخصوص، وكذلك كانت في بلاد المغرب العربي وتتمسك بالتراث الإسلامي واللغة العربية»⁶. ولقد أعاد الروائي صياغة ذلك، فمنهم من حاول إعادة كتابة التراث وتقديسه، وآخرون قدموا القيم الوطنية، كما وقفوا على طابع النقد الاجتماعي والسياسي، غير أنّ هناك من استخدمها لتبرير التمييز والعنصرية. كما عكف الكثير من الروائيين العرب اليوم على استلهام التاريخ، اتخذوه منطلقا أساسيا في أعمالهم الأدبية، وقد استنطق هذا المنطلق، من جديد، وكشف عن كلّ ما كان خفيا ومضمرا من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية وتعريتها؛ ونقد الأوضاع الاستعمارية، وغيرها، والبحث عن هوية عربية موحدة، وهذا ما تجلّى في روايات غسنان كنفاني، منها رواية "عائد إلى حيفا"، وأيضا ما كتبه "العبد الرحمان منيف في رواية "سباق المسافات الطويلة"، وكذلك بهاء طاهر في رواية "واحة الغروب"، وغيرهم من العرب الذين ناوشوا النزعة القومية، بمختلف مظاهرها وتفرعاتها، التي تؤكدوها.

4. تمثيلات النزعة القومية في رواية السماء تمطر ماء جافاً لزهير شايب:

عرفت حركة الاتجاه القومي العربي عبر النص الروائي صعوداً وهبوطاً دائمين، حيث رصدت الرواية العربية أحلام وآمال العرب بتوحيد المجتمع العربي قوميًا، من خلال برهنتها عن قومية النص الروائي، بتخطيها تلك المواضيع التي تتحدث عن قومية الجماهير العربية، بعيداً عن السلطات والشعارات والممارسات التلفيقية التي تنادي بالالتزام القومي، وهذا ما فعله زهير الشايب المصري بنصه الروائي "السماء تمطر ماء جافاً" التي تقصى فيه موضوع الوحدة المصرية السورية، هذه الوحدة التي تمت سنة 1958 وكان الانفصال سنة 1961 التي تعتبر تجربة خطيرة، بل واعتبرت في فترة زمنية نوعاً من التابو العربي.

ينتمي هذا النص إلى الرواية السيرية، لكن صاحبها حملها قضايا كبيرة تخص الأمة العربية ككل، فقد كتب زهير الشايب هذه الرواية عن ذاته وعن حياته الخاصة، وتحدث عن نفسه وعن الأمة العربية، وعن تجربة هامة في التاريخ العربي وهي "تجربة الوحدة القومية العربية" أو تجربة الوحدة بين مصر وسوريا، وكان ذلك بأسلوب سردي، وبغاية منشودة واضحة وهي تمرير خطاب سياسي مباشر، فهو يتحدث فيها عن المصائر السياسية العربية، محلاً كل الأوضاع والظروف والأخطاء التي أدت إلى الانفصال، مبرزاً موقفه الرفض لهذه الوحدة، ومبرزاً في الوقت ذاته إيمانه وانتماءه القومي، بلغة سردية فصيحة أسلوب رمزي كثيف. إذا كيف عبّر الروائي زهير الشايب عن الاتجاه القومي في الرواية؟ وماهي أسباب اختيار الوحدة وتداعيتها؟ إن طرح هذه التساؤلات يستدعي الوقوف على جملة من العناصر، نوردها على النحو الآتي :

1.4. تنشيط التاريخ من منظور روائي:

تسهم الرواية بقوة في استجلاء ما حدث في التاريخ بوصفها أداة من أدوات التعبير والإفصاح عنه، خاصة في زمن زاد فيه الاهتمام بالتاريخ، فجاء هذا الجنس الأدبي لعيد سرد التاريخ من منظور آخر، حيث تسقط أحداث وتقع أحداث أخرى لكي تحقق غايات منشودة منها: إثبات الهوية

العربية، ذلك عن طريق إعادة تركيب الواقع التاريخي عبر هذا الفن الأدبي، وفي رواية "السماء تمطر ماء جافاً" تقصى فيها -زهير الشايب- إحدى أهم مراحل تاريخ الأمة العربية، وهي مرحلة الوحدة القومية العربية بين مصر وسورية.

نشرت الرواية سنة 1979 على حين أحداث الرواية كانت ما بين سنة 1958 وهو قيام الوحدة وسنة 1961 وهو الانفصال، على غرار أحداث أخرى مثل الوحدة: كتأميم قناة السويس، ومعاهدة 1950، وبروز حركات الاستقلال العربية، دور الاتحاد السوفياتي، قوة عدم الانحياز... كل ذلك جعله الشايب في نسيج في إذ يقول «وهكذا شاءت لي الأقدار أن ألمس عن قرب وكمواطن عادي عن طريق الاحتكاك الذي هيأته المهنة -بعض ما ينبغي أن يقال حول هذا الموضوع الحيوي- موضوع الوحدة والانفصال الذي لم تقترب منه الأفلام ولم تستخلص منه الدروس الواجبة»⁷.

يحاول الكاتب في هذا العمل أن يبعد عن نفسه صفة المؤرخ، وفي الوقت نفسه لديه دور غير عادي في سرد الأحداث، وليس لديه أسرار مذهلة حول هذا الموضوع الحيوي، وإنما لديه تجربة يكاد يرى في عرضها بعض الفائدة وقدمها للقارئ بتجرد وصدق، رغم أن النفس أمانة بالسوء نظراً لكثرة آرائه الذاتية، كما أنه جمع هذه الأحداث "قضية الوحدة والانفصال" في عمل يجمع ما بين السيرة والرواية والفكر والسياسة، خاصة التي تعتبر ركيزته ودعامته.

استدعى الروائي زهير الشايب التاريخ في جو تخييلي، حيث عالج في روايته قضية الأمة العربية وهمومها القومية والفكرية والسياسية والاجتماعية، دون أن يضحى بالحقيقة التاريخية أو يزيّفها، قد يضيف شخصية أو أكثر أو حادثة معينة أو تاريخ أو قصص بعينها، ليس لهم وجود في كتب التاريخ، لكنه يأتي بها رمزا لفكرة معينة متحققة في الواقع التاريخي، ومن ذلك تصوير المؤلف زهير الشايب، لاستقبال الرئيس من قبل السوريين الذي كان يراه أمر غير عادي، يقول: «لقد كان لهذه الاستقبالات الأسطورية أثرها بالفعل في قلب الرجل حتى كانت سوريا تمثل نقطة ضعف فيه... ألم يكن لها أثرها، بل كل الأثر على حياتنا نحن المصريين البسطاء»⁸ يرى الروائي أنّ الاستقبال الجماهيري من قبل

السوريين، غايته تحقيق رغبة لشخصية عبد الناصر وحده، وليس رغبة بالوحدة، ويرى أنها وحدة عربية بينه وبينهم، وأكثر منها وحدة بين قطرين، وكان يؤكد على ذلك، ويرى أنه استنتاج صحيح حتى اليوم.

فهذه تعتبر شهادات حية على تجربة الوحدة، التي جاءت بأسلوب سردي يتضمن كل اللحظات التي عاشها الروائي في تلك المرحلة، كما أنه حاول إعادة تركيب الواقع التاريخي، عبر هذا الفن الذي يسعى إلى تنشيط التاريخ، وتحويله إلى درس مؤثر، يستطيع به الإنسان العربي أن يرسخ الوعي بمعرفة تجربة الوحدة، التي حصلت بين هذين البلدين العربيين، ثم الانفصال السريع، بأسلوب سردي فني مشوق، على غرار معرفتها في كتب التاريخ والفكر... فنقرأ في الرواية «وفجأة التقطت أذاننا هتافا بالغ الغرابة، بدنا مطر يا جمال.

وأعجب من ذلك أن الهتاف تردد بقوة وتكرر عدة مرات، حتى غدا المطر مطلباً جماهيرياً لا بد أن يستجيب له الزعيم وأن يحققه... لا بد أن عبد الناصر قد أخذ، قد ارتج عليه القول لحظة ثم قال رحمه الله بعد أن تغلب على دهشته.

بدكن مطر؟ وماذا بيدي؟

وصمت قليلاً ثم قال: ماذا أقول... حتى الطبيعة ذاتها تحاربنا ... تحارب الوحدة»⁹.

بدأت مطالب الشعب تزداد، وتتجه نحو الأصعب والأخطر ووصولاً إلى الانفصال، حيث عجز جمال عبد الناصر، عن تلبية حاجيات الشعب السوري، وعن مواصلة طريق الوحدة نظراً لعدة أسباب منها السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية، وخير دليل على هذا الفشل، يتجسد في طلب الشعب من الرئيس بدل من الله عز وجل، لأنه يرى أنه مطلب مستحيل أن يتحقق رغم أن هذا الرئيس صنع المعجزات وأمم قناة السويس، وهزم الاستعمار، هو بمقدوره أيضاً أن يسير السحب من السماء، وطلب المطر هنا عبارة شديدة الإيحاء تحيل إلى عشرات الأسئلة المحيرة، فهي ربما تدل على أن الوحدة لم تقدم شيئاً للشعب السوري، وما هذا الجفاف الذي يخيم عليها.

توالت أحداث الرواية، من أحداث تاريخية حقيقية وأخرى دخيلة تخيلية التي جسدها المؤلف الشايب في نسيج روائي مشوق، صوّر من خلالها تجربة الوحدة العربية، مبرزاً رأيه اتجاهها، وهو الرفض الشديد لها، فأنتجت تلك الأخطاء التي حصلت وغفلت عليها الجهات المعنية.

وبناء عليه يمكن القول، بأن الروائي بصدد إعادة كتابة التاريخ، كونه يتكئ على أحداث معينة، ووثائق وشهادات وتواريخ حقيقية قدمها عبر سيرته الذاتية، يرى فيها أنّ سوريا وظروفها فقط هي التي أدّت إلى هذا الانفصال، وعلى النقيض من ذلك تكشف بعض الكتب عن آراء، التي تختلف عن التصورات السالفة الذكر، ولعل أهم الأسباب التي أدّت إلى الانفصال، تكمن في عدم وجود تواصل وترابط على الأرض بين الإقليمين، ووجود الكيان الصهيوني الشديد العداء للطرفين، وأقل ما يمكن أن يقال، أن الروائي قد قام بكتابة رواية تنبني على عنصر التخيل، لهذا لا يمكننا الحكم عليها بالأمانة العلمية أو الدقة؛ ورغم هذا لا يمكن إنكار أن توظيف التاريخ دلالة على وعي نقدي وثقافي وجمال إبداعي، ولعل الدافع الأساسي من وراء هذا الاشتغال، هو قول مالا يستطيع التاريخ قوله، وفق تركيب فني يحمل شحنات إيديولوجية تميل إلى النقد الواقعي، لتجسيد رؤية معينة، تنبثق من هذا التاريخ، بغية استنطاق المسكوت عنه، في الحاضر عبر محاورة الماضي، والاستشراف للمستقبل، وهذا ما فعله زهير الشايب في روايته هذه، فيقول: «منذ قامت الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير 1958 ثم انفصمت عراها في 28 سبتمبر 1961 على يد الحركة الانفصالية السورية، فهناك صمت مطبق عجيب حول هذه التجربة الخطرة في حياة العرب عامة وحياة وأقدار المصريين منهم على وجه الخصوص، فحين تكون العلاقات العربية طيبة —تجد من يقول لك: لماذا لسنا في هذه التجربة المريرة...؟ وحين تصبح العلاقات العربية مليئة بالخلافات والمشاحنات، تجد من يقول لك إن شؤون العرب في حالة من السوء...»¹⁰. يسعى زهير الشايب من خلال رواية "السماء تنظر ماء جافا" إلى تحقيق سردية تاريخية تتماهى في تفصيلها للحقيقة مع النموذج التخيلي، ذلك من أجل تكوين هوية قومية عربية كما ينبغي أن تكون.

2.4. أسباب تداعي الوحدة القومية (التجربة المصرية - السورية):

صوّر زهير الشايب شهادات ومواقف بعينها لم تكن لصالح الوحدة بل كانت معادية لها، بل رصد سلسلة من الأخطاء والأسباب التي جعلته يرفض هذه التجربة والمشروع العربي كلّ، فهو ناقد على قرارات رؤساء الوطن العربي الفاشلة التي دائماً نتائجها وخيمة، ومنها:

1.2.4. طوباوية المشروع وانفصاله عن واقع المجتمع:

إنَّ سبب الانهيار الأساسي لهذه التجربة، غيَاب قواعد أساسية لقيام الوحدة المصرية السورية، بدءًا من بنية وتركيبية المجتمعين، في حد ذاتها خاصة "المجتمع السوري" الذي لم يكن لديه تناغم وانسجام فيما بينهم، على غرار بعض الظروف الداخلية للبلد، إذًا كيف سيكون هناك تناغم مع شعب آخر؟. فالروائي رصد تلك الحساسية المفرطة بين الشعبين، وعدم وجود أي تفاعل بينهما، حيث كان السوريين يرون أن كل شخص مصري موجود في سوريا، هو ضابط بالاستخبارات، ومثل ما حدث مع الروائي زهير الشايب، وقيل له أنّه ضابط استخبارات، يقول: «من يدري؟ ربما كان هذا الفهم الخاطئ هو الذي أساء إلينا أكثر من أي شيء آخر، وهو الذي حمانا كذلك من أخطار مؤكدة في الوقت نفسه ولم يكن لنا من دخل في كل ذلك في الحالين»¹¹ فحالات التعجب هذه التي كانت تنتاب الروائي جراء السلوكيات والأحداث والاستفسارات الملحة من قبل السوريين، اتجاهه بوجه خاص واتجاه المصريين بوجه عام، خلقت فجوة كبيرة بين الشعبين، مما أدى إلى خسارة الوحدة وحدث الانفصال السريع، وربما هذا راجع إلى التسرع المفاجئ في عقد الوحدة بين البلدين.

وكذلك يوضح مقطع الذي دار مع الأستاذ "عبد الكريم السوري" وبقية الأساتذة ومع السارد، حول ارتفاع سعر "باكيت" السجائر في سوريا، رغم أن السوريين هم الذين ينتجونها، وبذلك زاد غضب السوريين حول ذلك، واستفزازهم يقول «فاهم أستاذ ولكن هنا الدخان نحن بنتيجة هون يعني ما بنستورده، ولا يتكلف أي شيء... أتذكر تلك الكلمات تظن في أذني، كلمات طنانة عن الوحدة والتضحيات -هل- الوحدة هي مجرد شعارات ورقصات الدبكة وأغنيات الموسيقى وسوق الحميدية؟

أو هي عمل وتضحيات؟... إذن فلم الغضب»¹² لقد ترك انطباع ذلك المواطن السوري، حيرة في نفسية الشايب وجعله يتساءل، عن مدى علاقة الشعبين، وعن ماهية هذه الوحدة، إذ يضع لها احتمالين، فيقول هل هي مجرد شعارات رنانة لا هدف منها، أم هي مشروع نهضوي فعال؟. ومن خلال هذين الطرحين نلاحظ أنه يؤكد على أن هذه الوحدة بفعل شعارات ورقصات، وليست عمل وتضحيات، وهذه الأسباب الساذجة وغيرها، أدت إلى عدم فهم القطرين فيما بينهما، ولم تتحقق الوحدة القومية العربية.

كذلك يرى الروائي الشايب أن الوحدة لم تكن بين بلدين بل كانت بين الشعب السوري والرئيس جمال عبد الناصر المصري فقط، يقول: «إذا كانت هذه حقيقة مشاريعهم نحو الرجل فلماذا هذه الجفوة معنا؟ اتفقنا على أن السوريين يحبون عبد الناصر بلا أدنى جدال، أما فكرتهم عن مصر، وعن المصريين فأمر آخر»¹³، إن عدم وجود تفاعل واتصال بين السوريين ومع الروائي خاصة، أدى به إلى رفض هذه التجربة، وعند قراءتنا للرواية نلمح نبذة العداء والسخرية من كل شيء، فهو يعيد قراءة الأحداث، من زوايا أخرى بعيدة عن الذي حدث بكشفه عن تفاصيل، لم تكن، وغير ظاهرة نتيجة التحفظ حول موضوع الوحدة، ولكن الروائي قدمه بأسلوب سردي في قالب فني منطلقه، ودعامته السياسة التي تعتبر من المسكوت عنه.

لذلك يجب إقامة مراجعة نظرية، ونقدية لتجربة الوحدة من حيث إنجازاتها وثغراتها من أجل مواجهة كل التحديات والصعوبات الإمبريالية الصهيونية، التي تسعى إلى الهيمنة والقمع وتجزئة الأمة العربية بضرورة رفع الوعي القومي للجماهير العربية، حتى لا يقع فريسة لمخططات رجعية. لأن القومية خلفت الكثير في نفوس كل الشعوب العربية، ولأنها كانت بمثابة أمنية أراد بها الشعب العربي أن تهر كيانه نحو حياة ديمقراطية، لكن بذور الضعف رافقتها فأسقطت كاهلها، وربما من ذلك أثر زهير الشايب أن يضع عنوان روايته "السماء قطر ماء جافا".

هذا العنوان المليء بالإيحاءات والرموز والتناقضات والمعاني حول أخطر تجربة مرت على الأمة العربية، هذه التجربة القومية الهامة التي يجب أن تحمي كل مواطن، وتبعد كيد العدو وتجعل شرط الحرية منطلقها القومي، وحكم الشعب أساسها هذا من أجل بناء دولة قوية، وعبر عنه زهير الشايب بعبارة "السماء تمطر" لكن ماهية هذا الماء، فقال "ماء جافاً" وهل يعقل أن يكون هناك ماء جافاً، فوظف زهير الشايب صفة الجفاف ليدل بها على هذا الانفصال الذي جفّ قلوب الشعوب العربية عامة وحياة وأقدار المصريين بصفة خاصة وعنوان هذه الرواية هو تلخيص شامل وجامع لموضوعها وهو. موضوع الوحدة والانفصال، كما أنه وضع عنوان جانبي لغلاف الرواية الداخلي وهو رواية الوحدة والانفصال.

كذلك من بين أسباب الرفض والانفصال لعلّ من أهمها الوضع الاقتصادي للطرفين، وعدم توفر وسائل الربط بين الإطار القومي للتجربة الوحدوية وبين الأوضاع الاقتصادية في كلا البلدين، فظل الاقتصاد للبلدين غريبين عن بعضهما البعض، وبذلك خلق فجوة سياسية كبيرة، وبالتالي فحركة القومية هنا، انبت على أفكار طوباوية وبعيدة كل البعد عن الواقع، مما أدى ذلك إلى خسارة وتضرر المصريين بدرجة أولى، غير أنهم بذلوا كثيراً لنجاح الوحدة؛ وقد كان لعقدة الانفصال أثرها السلبي على نفسية الكاتب وكذلك حتى على نفسية القارئ، الذي تتكون له معرفة من خلال ما قدمه الروائي زهير الشايب، برصده لأهم الأخطاء التي أدت إلى رفض هذه التجربة كلياً، برغم إيمانه الشديد بالوحدة والانتماء إلى الأمة العربية.

2.2.4. الطائفية في مواجهة النزعة القومية:

تطرق الروائي زهير الشايب في روايته إلى مسألة الطائفية في سوريا، وأثرها السلبي على الوحدة، لأن فكرة الطوائف هي مس بالوحدة القومية، بشكل غير محبوب خاصة على مستوى السياسي وحتى الاجتماعي، إذا فالفكرة التي تستطيع أن تواجه النظام الطائفي، وتوحد الأوطان العربية وتوجههم نحو هدف مشترك هو الشعور القومي العربي، يقول الكاتب عن مسألة الطائفية التي واجها في سوريا:

«لكن قضية الطائفية في سوريا، أمر لا ينبغي أن نمر به ببساطة بالإضافة إلى أثرها المدمر على الوحدة، فقد كان لها أثرها حقا علينا كبشر عادين في سلمية»¹⁴ فهو تحدث كثيراً عن الطوائف كالإسماعيليين والقدامسة وطقوسهم البعيدة عن الإسلام، ويرى أنها قضايا جدّ صعبة وخطرة على الوحدة القومية، هذه الأخيرة تعدّ دعوة إلى توحيد كل الشعوب العربية، تحت دولة دون أن تكون هناك لا أقلية ولا مجموعات طائفية، تقوم بذاتها وتبني أفكارها خارجة عن نظام السياسي الوحدوي العربي.

لقد تناول الروائي هذا الموضوع الجزئي، لأن هذا الموضوع يمس كل من الجانبين الديني والسياسي، وأيضاً يعد من المواضيع المحظورة. ولكنه تطرق إليه وبكل تلقائية، فمثلاً بدى بانزعاجه الكبير من شيخا من حماة -مدينة في سوريا- الذي رأى الهلال بالعين المجردة، فصار العيد في سوريا قبل يوم من إعلان العيد في مصر، رغم أنها دولة عربية واحدة فيفسر هذا القول فيقول «لكن الأدني من ذلك إلى التأمل هو حرص السوريين على أن يكونوا متمايزين مختلفين حتى في أمور لا تحتاج لأدني اجتهاد»¹⁵.

إذاً كيف يعقل لدولة واحدة ودين واحد ونظام واحد أنّ الأولى تعلن يوم غد عيد الفطر والأخرى غدا هو متمم لشهر رمضان، فمن البديهي أن هذه الأمور أدت إلى الانفصال وإلى فشل هذه التجربة القومية.

تأسس فكرة الطائفية في رواية "السماء قطر ماء جافا" على انزياح يفضي دائماً إلى تحولات عميقة في مستوى الوعي ومن ذلك كيفية تعامل الروائي الشايب بصفته مواطن مصري مع هؤلاء الطوائف في سوريا لقابلية التعايش معهم رغم تلك الطقوس التي يقوم بها الإسماعيليون والقدامسة، التي تبتعد كثيراً عن طقوس الإسلامية، وهذا الانزياح الاجتماعي بطبيعة الحال يعقبه تبدل فكري ونفسي، وبذلك يحيل هذا إلى قضايا خطيرة ويخلق قضايا أخرى أكثر تعقيداً التي تضع المجتمعين في طريق لا يفضي إلى تكوين وحدة قومية، وبذلك ينتج غياب كلي لفكرة الديمقراطية.

وهذا الانزياح الاجتماعي بالضرورة سيحل إلى انزياح سياسي، يصحبه الفكر الديني خاصة، «إذا وقع التدين السياسي في مجتمعات متعددة الطوائف، وتعاني في الأصل عدم استقرار في هويتها الوطنية أو القومية، فإنه يؤول بالضرورة، وبغض النظر عن نشوئه إلى طائفية سياسية، حاملا معه فكرة السياسي الديني، سواء أكان سلفيا أم أصوليا أم إصلاحيا، ويستخدم الطائفية في التجسيد خلفه»¹⁶ وبالتالي فإن نشوء هذه الطوائف السياسية التي تستخدم الدين لأغراض ما من أجل خدمة مصالحها، هذا سيؤدي بالضرورة إلى تضارب في تكوين هوية قومية، خاصة لأن دولة الوحدة تسعى إلى توحيد كل الأقليات والطوائف لكن في الأخير، هذا الأمر مدمر للوحدة، وجعلت الروائي تزداد له فكرة العداء الشديد إلى ملوك الطوائف بسوريا، ويرى أن هناك عدة أخطاء أدت إلى الانفصال، وأن قرار قيام الوحدة كان فيه سرعة، وعدم تخطيط مسبق ومحكم.

3.2.4. براغماتية الدولة السورية اتجاه مشروع الوحدة:

رغم تلك الأسباب التي أدت إلى الانفصال، يركز كذلك الروائي زهير الشايب على سبب مهم، وهو براغماتية الدولة السورية تجاه مشروع الوحدة، فسوريا كانت تطالب بالاتحاد مع مصر، ليس بدافع النهوض باسم الجمهورية العربية المتحدة، ولا الشعور بقيمة روحية عربية، أرادت حماية رفاهية الشعب العربي، وإنما لأجل خدمة مصالحها، وليس عن طريق رفع شعارات ظاهرها قومي، وباطنها نفعي، وبهذه النية المبيّنة فشلت الوحدة في الأخير.

تطرق الروائي زهير الشايب إلى هذه التفاصيل الجزئية، ومررها إلينا عبر خطابه الروائي، إذ يرى في تحليلاته واستنتاجاته أن السبب الأول لمطالبة السوريين بالوحدة، كان نتيجة ظروفهم غير المستقرة داخليا وخارجيا لا غير، يقول في ذلك «ظروف سوريا إذن هي أم الإيمان بالوحدة العربية، أم الأمان معا»¹⁷ وفي هذا الطرح كان يميل إلى ظروف سوريا وشؤونها هي التي أدت للاتحاد مع مصر وليس الإيمان والرغبة بالوحدة القومية العربية، ومن بين تلك الأوضاع والظروف التي أدت إلى عقدة الوحدة مع مصر، خوف دولة سوريا من الوقوع في قبضة الشيوعين، فهذا السبب الذي جعلها

تلقي بنفسها في أحضان مصر. فالوحدة قبل كل شيء في الرواية، تعني تصفية النفوذ الأجنبي من المنطقة العربية، وتوحيد الجهود، وحشد كافة الإمكانيات العربية من أجل تحرير أراضيها، بالتخلص من كل نفوذ أجنبي وإقامة عمل عربي كحد أدنى لحماية أمن الأمة العربية، هذا الأساس الذي دعت التي إليه روحها وصرح به المؤلف، بلغة سردية حكاية.

5. موقف الكاتب بين إيمانه بالقومية وواقع تجربة الوحدة:

كتب زهير الشايب رواية "السماء تمطر ماء جافا" حافلة بالانتقادات السلبية، التي أحاطت بأول تجربة عربية قومية، هي التجربة المصرية السورية. ويمكن القول أنها انتقادات صائبة إلى حد ما، لأن الروائي هنا رصد فيها ما كان خفيا، وما كان مسكوتا عنه، وأبرز الكثير من الأسباب التي أدت إلى الانفصال واختيار الوحدة، في حين بداية الأمر كان يصف لنا الفرح بالوحدة ثم الانقلاب والرفض الشديد لها وعلى المواطن السوري والمصري، لأن معظم الانتقادات التي قدمها لم تكن للسلطة، بل كانت موجها أكثر للشعب، هذا نتيجة التجربة التي عاشها في سوريا، لأنه كان يعمل مدرسا هناك، وكان يرى بصفته مصريا آثار التجربة على وجدان السوريين. ومن هنا يمكننا أن نوضح كيف عبر الشايب عن انتمائه القومي.

عاش الكاتب الإراصاصات الأولى للوحدة التي مثلت الوعي العربي في توحيد قطرين عربيين، من أجل النهوض بالهوية العربية، وتكوين وحدة قومية تدعوا إلى الحرية، هذا الذي كان أمل وحلم أي مواطن عاش في تلك المرحلة، أو حتى المواطن الذي لم يعيشها، لكن ونظرا لعدة ظروف وأسباب لم يكتمل هذا الحلم العربي، وبذلك كانت هذه الرواية راصدة لمختلف الأسباب التي أدت إلى الانفصال وتعبيرا عن هاته التجربة في عمل فني أدبي.

يصرح زهير الشايب في بداية فصول روايته أن هذه التجربة التي عاشها كانت تجربة ساخنة، وأثرت بشكل كبير في وجدانه وذاكرته، وأنه من الضروري أن يقدم هذه التجربة القومية الهامة، فتجربة

الوحدة المصرية السورية تجربة كانت عميقة حفرت في وجدان الشعوب العربية ووحدت الآمال وحققت الأحلام، و بالفعل كانت تجربة قومية هامة والتاريخ يشهد على ذلك.

رغم موقف الروائي زهير الشايب، المعادي لتجربة الوحدة العربية، إلا أننا نلمح من خلال سطور روايته إيمانه المطلق بأن الأمة العربية وحدة روحية وثقافية، تؤكد لها الحقائق التاريخية والجغرافية، والآلام والآمال المشتركة التي تعبر عن أصالة هذه الأمة وتماسكها، وأن القومية العربية إنما هي إيمان عميق بعبقرية الأمة العربية التي تساهم في بناء الحضارة الإنسانية، وتدفعهم بقيم القومية إلى بناء ثقافة قومية جديدة تعيد إليهم روحهم التي هدرت وحرثتهم التي سلبت، وهذا ما عبر عنه الروائي، لما وافق على التصويت بنعم للوحدة وعلى رئاسة جمال عبد الناصر أن يكون رئيسا، فهو صوت من الأصوات العربية التي تطمح بأن يكون للعرب هدفا مشتركا لبناء مستقبل أفضل، ورغم تصريحه بأنه ندم على الإدلاء بصوته إلى صالح الوحدة العربية، وكان يقول أنه كان متأثر بمن سبقوه، إلا أن هذا ليس من المنطقي إلى حد ما لأن الرجل من الطبقة المثقفة ولديه وعي المثقف المؤمن بالوحدة القومية العربية، وإعطاء صوته، إنما هو نابع عن وعيه الشديد بهذه الوحدة التي ستنهض بالأمة العربية يقول «لاحظت أن الجميع يدلون بأصواتهم أمام الساتر لا خلفه، ويساعدون بعضهم بعضا في تسويد دائرتي "النعم" للوحدة ولعبد الناصر... وحن دوري... وجدتني أنا أيضا لم أستعمل الساتر، وأكثر من ذلك رأيت أنني أيضا من الموافقين»¹⁸.

صحيح ملمح الرفض مسيطرة على زهير الشايب لكن مثل هكذا قرار إنما يدل على جيل مؤمن بوحدة أمته التي ستقدم له التضامن مع المواطنين وتبعث له التفاؤل والنضال من أجل تحقيق نهوضا شاملا للوطن العربي بالدعوة منه إلى طرح أفكار وحدوية أصيلة، وإصراره على المحافظة على كل القيم الثقافية التي تعيد اللحمة إلى هذه الأمة عن طريق إيقاظ الذاكرة التي يستعيد من خلالها الإنسان العربي ارتباطه بهذا الماضي، وبهذا التاريخ المحفور في أذهان الأوطان العربية.

كذلك من بين الدعوة والإيمان بالوحدة القومية العربية نلاحظ ذلك التحمس الشديد من الشايب إلى سماع نشيد الوحدة وإلى مشاهدة ذلك المشهد المهيّب بعد إعلان الوحدة ومن ذلك يقول: «مصر كلها ستردد في وقت واحد نشيد الوحدة، هل تتخيل ذلك؟ وسيكون مشهدا مهيبًا.

ووجدتني في شوق أنتظر الصباح لأحظى أنا أيضا في مناسبة إعلان الوحدة الرائدة... أول خطوة على طريق الوحدة الشاملة برؤية موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب»¹⁹.
فالكاتب زهير الشايب يمتلك رؤية واضحة، وطموح كبير لاستنهاض المهم بوعيه وانتمائه القومي، لأنه واحد من هؤلاء المعبرين عن آمال وآلام هذه الأمة، فهو بمثابة المرآة العاكسة لها، يقول عن وطنه الثاني «عندما كنت في طريقي إلى دمشق كنت نخباً لرؤية وطني الذي لن أكن قد رأيته بعد... لكن لهفتي لرؤية وطني الذي لم أكن قد رأيته جعلني أترك كل هاجس»²⁰. هذا الشعور القومي المتأرجح في صدر كاتبنا زهير الشايب، نتيجة أحداث الواقع العربي كون له موقف إنساني يرى فيه أن الاتجاه القومي يجب أن يتمثل في مثل هكذا مواقف، بالإيمان بروحانية العروبة وأصالتها، فكأنه يرى أن الشعب العربي الذي يسكن هذه الأرض كلها هو شعبه وأن الأمة العربية من المحيط إلى الخليج تعدُّ أمته.

6. خاتمة:

- تمخضت هذه الدراسة المتواضعة عن النزعة القومية في الخطاب الروائي العربي، وفي رواية "السماء قطر ماء جافا" لزهير الشايب أمودجا عن جملة من النتائج أوجزها في شكل نقاط الآتية:
- القومية حركة عالمية، تحكمها عوامل كاللغة، والتاريخ، والأرض، وحتى الأصل والمنشأ، هذه العوامل يشترك فيها جميع الشعوب التي كونت قوميات عربية.
 - البحث عن الهوية القومية عبر الذات العربية في الرواية، تحقق عبر عدة عوامل وقضايا أهمها المنحى التاريخي والاجتماعي.

- التزام الروائي زهير الشايب في روايته، بقضايا أمته وهي الوحدة العربية، وتمثل لأحداثها التاريخية وتفاعل معها، ودعوته إلى الوحدة العربية والإيمان بها لأنها السبيل الأقوى في الحفاظ على هوية الأمة، وتمكين وجودها بين الأمم.
 - تأكيده على فشل تجربة الوحدة العربية -المصرية السورية- في توحيد الأمة معبرا عن اتساع الحرج العربي خاصة المصري بتفشي الفرقة والانقسامات الطائفية، وبسبب تلك الخيبات والهزائم العربية المتلاحقة وخيانات الزعامة العربية.
 - موقف الروائي الصريح من الوحدة العربية ومعاداتها بحكم تجربته التي عاشها خلق له ذلك اليأس من كل شيء حتى الانتماء إلى مصر، وإغراقه في الحديث عن نفسه وتعميم الآراء المزاحية ربما أجل تمرير خطاب سياسي مباشرة.
 - قدرة الروائي زهير الشايب على فهم الواقع التاريخي للوحدة العربية ووعيه المعرفي به من خلال نقمته على هذه الوحدة نتيجة الفشل والانفصال.
 - ومن هنا يمكن القول، إنَّ ما يعتري موضوع القومية العربية، من غموض والتباسات ليس من السهل تخطيه، كما تبقى هذه الرواية تنفتح على الكثير من الدراسات، وتكتنز إلى أبحاث جادة فيها.
- 7- الهوامش:**

- 1- القرآن الكريم، سورة الحجرات. الآية 11.
- 2- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مراجعة أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، القاهرة، مصر، دار الحديث، 2008، ص 730.
- 3- زرزور عدنان محمد، جذور الفكر القومي والعلماني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، 1420 هـ، 1999م. ص 43.
- 4- الهندي هاني، الحركة القومية في القرن العشرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 2015، ص 178.
- 5- وهبة مجدي، المهندس كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت لبنان، ساحة الرياض الصالح، ط2، 1984، ص 300.
- 6- مصطفى عبد الغاني، الاتجاه القومي في الرواية، دار المعرفة، الكويت، أغسطس 1991، ص 22.
- 7- الشايب زهير، السماء تطر ماء جافا، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1979، ص 7.
- 8- الشايب زهير، نفس المصدر، ص 27.
- 9- الشايب زهير، نفس المصدر، ص 135.
- 10- الشايب زهير، نفس المصدر، ص 3.
- 11- الشايب زهير، نفس المصدر، ص 182.

- 12- الشايب زهير، نفس المصدر، ص115.
 - 13- الشايب زهير، نفس المصدر، ص100.
 - 14- الشايب زهير، نفس المصدر، ص56.
 - 15- الشايب زهير، نفس المصدر، ص129.
 - 16- بشارة عزمي، مدخل لفهم مسألة الطائفية وصناعة الأقليات في المشرق العربي الكبير، مجلة عمران، عدد11، مجلد3، المركز العربي الأبحاث ودراسة السياسات، (قطر، دوحة)، 2015، ص16.
 - 17- الشايب زهير، نفس المصدر، ص12.
 - 18- الشايب زهير، نفس المصدر، ص18-19.
 - 19- الشايب زهير، نفس المصدر، ص20-21.
 - 20- الشايب زهير، نفس المصدر، ص37.
- 8. قائمة المصادر والمراجع:**
- 1- القرآن الكريم.
 - 2- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مراجعة: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، القاهرة، مصر، دار الحديث، 2008.
 - 3- زرزور عدنان محمد، جذور الفكر القومي والعلماني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، 1420 هـ، 1999م.
 - 4- الهندي هاني، الحركة القومية في القرن العشرين، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، أكتوبر، 2015.
 - 5- وهبة مجدي، المهندس كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت لبنان، ساحة الرياض الصالح، ط2، 1984.
 - 6- مصطفى عبد الغاني: الاتجاه القومي في الرواية، دار المعرفة، الكويت، ط1، أغسطس 1991.
 - 7- بشارة عزمي، مدخل لفهم مسألة الطائفية وصناعة الأقليات في المشرق العربي الكبير، مجلة عمران، عدد11، مجلد3، المركز العربي الأبحاث ودراسة السياسات، (قطر، دوحة)، 2015.
 - 8- زهير الشايب: السماء تمطر ماء جافا، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1979.